ابن أبي الإصبع المصري وإسهامه في المصطلح النقدي والبلاغي في كتابيه: "تحرير التحبير" و"بديع القرآن"

Ibn Abi El-Isboa El-Masseri's Contribution to Critical and Rhetoric Terminology in his books:
'Tahrir El-Tahbir'and 'Badia El-Quran'.

تاريخ الاستلام : 2019/04/14 ؛ **تاريخ القبول :** 2020/06/01

أ. فوزية سعيود

كلية الآداب واللغات، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر.

ملخص

يشكّل المصطلح النقدي والبلاغي المدخل الأساس في فهم أدبنا العربي القديم، وقد تنبه القدماء إلى أهميته، ولذلك حاولوا الإسهام فيه بقدر لا يستهان به، ويعد "ابن أبي الإصبع المصري"(ت654هـ) واحدا من هؤلاء، وتجلّى ذلك في كتبه المتعدّدة.

وسنخصص هذا البحث لإبراز جهوده والمنهج الذي اتبعه في ذلك ، من خلال كتابيه: تحرير التحبير و بديع القرآن.

الكلمات المفتاحية: مصطلح، مصطلح نقدي، مصطلح بلاغي، ابن أبي الإصبع المصري، إسهامات.

Abstract

The critical and rhetorical terms constitute the primary entrance to the understanding of our ancient Arabic literature. Due to their awareness of the importance of critical and rhetoric terms, classical scholars attempted to contribute significantly in this regard. Ibn Abi El-Osboa El-Masseri' is considered as one of the eminent figures who laid the foundations for critical and rhetorical terminology through two important books, namely: 'Tahrir El-Tahbir' and 'Badia El-Quran'.

Keywords: terminology, critical terminology , rhetorical terminology, Ibn Abi El-Osboa El-Masseri, contribution..

Résumé

La terminologie critique et rhétorique représente l'entrée principale à la compréhension de la littérature arabe ancienne, les anciens auteurs étaient conscients de son importance, c'est pour celà ils ont taché à y contribuer avec un travail considérable; Ibn Abi El Ousboue Al-Misri (654 de l'hégire) était l'un de ces contributeurs, ces livres en était le témoin. Nous consacrerons la présente recherche à la mise en évidence des efforts fournis et de la méthode suivie par lui à le faire à travers ses deux ouvrages " Tahrir Ettahbir" et "Badie El Qura'an".

Mots clés : terminologie, terminologie critique, terminologie rhétorique, Ibn Abi El Ousboue Al-Misri, apport.

.

* Corresponding author, e-mail: f.saioud@umc.edu.dz

© جامعة الاخوة منتوري قسنطينة 1، الجزائر 2021.

تمهيد:

يُعد "ابن أبي الإصبع المصري" من الأعلام الذين أسهموا في التأسيس للمصطلح النقدي و البلاغي بصورة لافتة للانتباه، وذلك من خلال مجمل كتبه، وخاصة كتابي: " تحرير التحبير" و"بديع القرآن".

حيث حشد فيهما قائمة طويلة من المصطلحات النقدية والبلاغية تجاوزت ثلاثين ومائة(130) مصطلح، في محاولة منه لتيسير السبيل أمام الدارسين والباحثين لفهم إعجاز القرآن الكريم والوقوف على أسراره البلاغية، وكذلك إدراك صناعة فن القول لدى المبدعين من الشعراء والكتّاب.

وعليه فإنّ السؤال الذي يواجه الدارس، هو: كيف تعامل ابن أبي الأصبع العدواني المصري مع التراث النقدي والبلاغي ؟ وما هي خصائص منهجه في التأسيس المصطلحي ؟ وهل كان مقلّدا غيره أم شقّ لنفسه طريقا مغايرا متّسما بالتجديد؟

1- نبذة عن حياة المؤلّف :

لعل من المهم، قبل الحديث عن إسهامات "ابن أبي الإصبع المصري" في التأسيس للمصطلح النقدي والبلاغي أن نعرّف بهذا العالِم الجليل الذي وهب نفسه لخدمة اللغة العربية وبيان إعجاز القرآن الكريم، خاصة وأننا وجدنا أنه قد بخس حقه من الدراسة، فارتأينا أن نلم بما توصلنا إليه من المعلومات عنه، وعن بيئته التي نشأ فيها، وعصره الذي عاش فيه، ومصادر علمه وثقافته.

فاسمه :« الإمام العلامة عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد بن جعفر بن الحسن زكي الدين أبو محمد البغدادي ثم المصري، المعروف بابن أبي الإصبع ، كان أحد الشعراء المجيدين، وهو صاحب التصانيف المفيدة في الأدب وغيره، ومولده في سنة خمس وقيل تسع وثمانين و خمسمائة بمصر، وتوفي بها»[1] ، سنة أربع وخمسين وستمائة [2].

وقد ورد اسمه في كتاب "الأعلام":« ابن أبي الإصبع(595-654هـ) عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري: شاعر من العلماء بالأدب. مولده ووفاته بمصر. له تصانيف حسنة»[3].

وجاء على لسان محقق الكتابين "تحرير التحبير و بديع القرآن" الدكتور"حفني محمد شرف"، أنّ اسمه:« أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري المعروف بابن أبي الإصبع، ولد رحمه الله بمصر سنة(585هـ) ، وقيل(589 هـ)»[4] .

فلا خلاف إذن بين المترجمين في اسمه، ولا في اسم أبيه، ولا في مسقط رأسه، ولا في تاريخ وفاته بل الخلاف في تاريخ ولادته، فلم تحدد كتب التراجم ذلك، لكن أغلبها يتفق على أنه ولد سنة (585هـ) أو(589هـ).

لكن« من أين أتته هذه الكنية؟ ولِمَ لُقِّب بالعدواني؟ أ كان من عدوان؟ أم يتصل نسبه بذي الإصبع العدواني الشاعر القديم ؟ » [5] .

على الأرجح أنه لقّب بذلك تيمنا لما كان له من شهرة ذائعة في الشّعر، أو ربما كان من عدوان خاصة وأنه ولد بمصر وعاش فيها، لكن من المستبعد اتصال نسبه بذي الإصبع العدواني الشاعر الجاهلي؛ فسلسلة النسب التي وردت له في كتب التراجم والطبقات و التاريخ لا توصل نسبه إلى العصر الجاهلي، كما أنه لم يذكر في مؤلفاته ما يشير إلى نسبته إلى "ذي الإصبع العدواني" [6].

لقد عاش "ابن أبي الإصبع المصري"« معظم حياته في ظل الدولة الأيوبية، وشطرا من دولة المماليك البحرية، والدولة الأيوبية قد حكمت مصر الوطن الأصلي لابن أبي الإصبع من سنة 567هـ_ سنة 648هـ» [7] .

وكانت مصر في هذا الوقت تحت أنظار الصليبيين، وبعض الأمراء المصريين، فكثرت بذلك الفتن و دبت الفوضى، واشتعلت نار الحروب، فشهد "ابن أبي الإصبع المصري" تلك الحروب والفتن ولكن يبدو أنه لم يشارك فيها لا بسيفه، ولا بقلمه، فلم يمدح سلطانا، ولم يتول منصبا من مناصب الدولة، وآثر العكوف على العلم و التأليف، زاهدا في المناصب، مبتعدا عن الحروب و الفتن، شأنه في ذلك شأن العلماء ذوي التجارب و البصائر [8].

و لمّا كان المرء ابن بيئته كما يقال، فإن" ابن أبي الإصبع المصري"(ت654هـ) نشأ في مصر فاكتسب من أهلها رقة الطبع وصفاءه، وأكسبته مروجها وخمائلها تذوق الجمال، فكان شاعر القاهرة الأول في الوقت الذي كان فيه" جمال الدين أبو الحسن الجزار" شاعر الفسطاط ، وبذلك شارك أمته في الحياة العقلية، فكان مؤلفا، وأديبا، ونحويا، وشاعرا، وناقدا له القدرة علي التحليل والتعليل والموازنة، وكان فقيها درس الفقه والحديث وألّف فيهما، كما تحدث عن السموات السبع، وعن الأنواء و النجوم و الهداية بها [9].

كما كان بليغ مصر الأوحد الذي لم يلحق شأوه و لم يشق غباره، وهذا ما تحدث به صاحب كتاب " مسالك الأبصار" عندما تكلم عن علماء البلاغة في مصر، قائلا:« و أما مصر فلم يقع إلينا من أهلها إلا واحد، ولكنه أيّ واحد، وواحد كالألف إن أفزعنا، وهو: الزكي عبد العظيم عبد الواحد بن ظافر، المعروف بابن أبي الإصبع، جد حتى انقاد له الحظ، وسهر حتى رق عليه قلب الليل الفظ، طالما محا الشك بإدراكه، وتنحى سهيل فوقع في أشراكه، مر على قطائع الكواكب فساق قلائصها، وسام في طرائد الليل قنائصها ، وكان بمصر وله مثل مقطعاتها، ونظير مصبغات ربيعها و مصبغاتها قطع شعر هي السحر الحلال، والبارد العذب لا ماء النيل الزلال، وعليه تخرج جماعة من المتأخرين الأدباء» [10] .

والحق أنّ" ابن أبي الإصبع المصري"(ت654هـ) اكتسب هذه المكانة بين علماء البلاغة بجده واجتهاده، يضاف إلى ذلك عوامل عدة، منها: العصر، والبيئة، والعلوم التي نهل منها.

والقمين بالذكر، أن كتب التراجم لم تحدثنا عن أمور عدة في حياته، منها: المدارس التي تعلّم فيها وشيوخه الذين تلقّى العلم عليهم. كما يظهر جليا تأثره بمن سبقه من العلماء وخاصة" عبد القاهر الجرجاني"(ت471هـ)، صاحب "أسرار البلاغة"و" دلائل الإعجاز" و" فخر الدين بن الخطيب الرازي"(ت606هـ) صاحب" نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز"، و" ابن سنان الخفاجي"(466هـ) صاحب" سر الفصاحة" إذ إنه كثيرا ما ينقل عن هذه الكتب و يستشهد بما فيها من آراء[11] . إضافة إلى تأثره "بقدامة بن جعفر"(ت337هـ) فكثيرا ما يشيد بذكره وينقل عنه، ويتبعه في تعريفه ويمتدح رأيه.

كما كان للقرآن بالغ الأثر عليه، فاتصاله به و معاهدته له بطول النظر والتدبر، من أهم العوامل التي أثرت فيه بشكل خاص بطابع أدبي يعتمد على مقاييس فنية جمالية خاصة، جعله يتمتع بذوق رفيع وشعور قويّ بالجمال، كلّ هذا جعله يهتم بالنصوص القرآنية والأدبية، أكثر من اهتمامه بالتقسيم والتحديد المنطقي المعروف عند "السكاكي"(ت626هـ) و من تبعه في ذلك [12].

وقد أشار "بهاء الدين السبكي"(ت773هـ) إلى ذلك في حديثه عن الاتجاه المصري في البلاغة العربية في قوله:« أمّا أهل بلادنا فهم يستغنون عن ذلك بما طبعهم الله عليه من الذوق السليم، والفهم المستقيم، والأذهان التي هي أرقُّ من النسيم، وألطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم، أكسبهم النيل تلك الحلاوة، وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه الطلاوة، فهم يدركون بطباعهم ما أفنى فيه العلماء فضلا عن الأغمار الأعمارَ، يرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما احتجب عن الأسرار خلف الأستار»[13] .

وممّا يشهد على ما قلناه عن بلاغة "ابن أبي الإصبع المصري" واقتداره، أنّه ترك لنا العديد من الآثار، منها:

1 ـ تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن.

2 ـ بديع القرآن.

3 ـ الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح: تحدث فيه عن فواتح سور القرآن المعجمة والمعربة منه نسخة في المكتبة العربية بدمشق[14] .

4 ـ الشافية في علم القافية.

5 ـ الكافلة في تأويل تلك عشرة كاملة.

6 ـ صحاح المدائح: وهو عبارة عن ديوان شعر مدح به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأهل بيته والخلفاء الراشدين الأربعة، كما وصف في بعض قصائده القرآن الكريم وبلاغته.

7 ـ كتاب الأمثال: بدأه بذكر أمثال القرآن الكريم، وألحق بها أمثال دواوين الإسلام الستة، وختم الجميع بذكر أمثال العامة.

8 ـ الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وخصومه: وهذا الكتاب له صلة وثيقة بالنقد ومعرفة ما يلزم في تأليف الشعر والنثر، و الرد على بعض معارضي "قدامة بن جعفر".

9 _وصيته إلى الكتاب والشعراء.

10 _المختارات في الأدب: موجود في جامعة الرياض(156) [15].

2 _ كتاب تحرير التحبير:

يُعد هذا الكتاب صورة لجهد "ابن أبي الإصبع المصري" فيما أضافه للمصطلح ، فقد ألّفه ليدرس فيه ما يعرف بالألوان البديعية حتى عصره، إضافة إلى ما اخترعه أو ابتدعه. فكان رائدا في دراسة هذه المصطلحات، بما له من إبداعات فيها، وحسن اطلاع ، وعمق فكر، وبراعة استقصاء، لذلك قال عنه "إحسان عباس":«كان ابن أبي الإصبع(ت654هـ) صاحب كتاب «تحرير التحبير» من فرسان هذا الميدان»[16] ، وقد انماز هذا الكتاب مِنْ غيره مِنَ الكتب بأمرين هامين؛ « أولهما: محاولته في التوسع الإحصائي لفنون البديع ابتداء من ابن المعتز حتى عصر المؤلف. وثانيهما: اتساع مجال المصادر التي اعتمد عليها في تأليف هذا الكتاب»[17] .

وفي سياق الحديث عن المصادر التي اعتمدها في تأليف كتاب" تحرير التحبير" يصرح _كعادة القدماء في التقديم لمؤلفاتهم _ قائلا:« ولقد وقفت من هذا العلم على أربعين كتابا منها ما هو منفرد به وما هذا العلم أو بعضه داخل في بعضه كنقدي قدامة و بديع ابن المعتز، و حلية المحاضرة، وكشفت عن« الحالي والعاطل» الذي ذكره الحاتمي في الحلية فلم أجد من يعترف بوقوعه عليه سوى ابن منقذ في بديعه، و كالصناعتين للعسكري، والعمدة لابن رشيق...» [18] .

جمع "ابن أبي الإصبع المصري " من هذه الكتب أنواع البديع، وجعل منها أصولا، ويقصد بالأصول الأنواع التي جاء بها" ابن المعتز"(ت296هـ) في كتابه"البديع" و"قدامة"(ت337) في كتابه" نقد الشعر" وعددها ثلاثون.

أمّا الفروع فهي الأنواع التي أخذها عن العلماء الذين جاءوا بعد" ابن المعتز" و" قدامة" وعددها ستون نوعا، واخترع أو ابتدع هو ثلاثين نوعا أضافها إلى ما سبق، ونسب "للأجدابي" ثلاثة أنواع. ذكر أنّه غيّر أسماءها لأنها لم توافق مسمياتها، قال في مقدمته:« فإني رأيت ألقاب محاسن الكلام التي نعتت بالبديع قد انتهت إلى عدد منه أصول و فروع: فأصوله، ما أشار إليها ابن المعتز في بديعه وقدامة في نقده، لأنهما أول من عني بتأليف ذلك»[19] .

وقد خصَّص للأصول الجزء الأول من كتابه "تحرير التحبير"، حيث قمنا باستقصاء تلك المصطلحات وتصنيفها في جدولين:

_ مصطلحات "ابن المعتز":

المصطلح	الصفحة	المصطلح	الصفحة
الاستعارة	97	تجاهل العارف	135
التجنيس	102	الهزل الذي يراد به الجد	138
الطباق	111	حسن التضمين	140
رد الأعجاز على الصدور	112	الكناية	143
المذهب الكلامي	119	الإفراط في الصفة	147
الالتفات	123	التشبيه	159
التمام	127	عتاب المرء نفسه	166
الاستطراد	130	حسن الابتداءات	168
تأكيد المدح بما يشبه الذم	133		

نلاحظ من خلال هذا الجدول:

– أنّ عدد المحسنات التي ألحقها "ابن المعتز" بفنون البديع الخمسة هي اثنا عشر، وعلى هذا يكون مجموع ما ذكره "ابن المعتز" سبعة عشر فنا، على أنّ "ابن المعتز" ذكر ثلاثة عشر محسنا ألحقها بفنون البديع الخمسة فصارت ثمانية عشر، وربما يرجع السبب في ذلك إلى النسخ التي اطّلع عليها "ابن أبي الإصبع المصري" والتي قد لا يوجد فيها محسّن"الرجوع".

– لقد جعل ابن المعتز "الاستعارة" أول أنواع البديع، وهي عند "السكاكي" وعلماء البلاغة باب من أبواب علم البيان.

– تفرد ابن المعتز – حسب رأي ابن أبي الإصبع المصري– بذكر باب"عتاب المرء نفسه". والأرجح أن الباب بأكمله دخيل على "ابن المعتز"، حيث تكلم هذا الأخير عن "إعنات المرء نفسه" الذي يُعرف بـ"لزوم ما لا يلزم" .

– تنوع المصطلحات من حيث الصياغة، فشملت المصطلحات المفردة وعددها ثمانية(08)، والمصطلحات الثنائية وبلغ عددها أربعة (04)، وباقي المصطلحات متكونة من أكثر من كلمتين وعددها خمسة(05). والذي لابد من ذكره هنا هو أن الأصل في المصطلحات أن تكون مختصرة دالة، فإذا كانت من ذوات الكلمة والكلمتين فهي أقرب إلى تحقيق هذا الشرط مثلما جاء في هذا الجدول.

_المصطلحات التي انفرد بها "قدامة بن جعفر":

المصطلح	الصفحة	المصطلح	الصفحة
صحة الأقسام	173	التمثيل	214
صحة المقابلات	179	ائتلاف اللفظ مع الوزن	221
صحة التفسير والتبيين	185	ائتلاف المعنى مع الوزن	223
ائتلاف اللفظ مع المعنى	194	ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت	223
المساواة	197	التوشيح	228
الإشارة	200	الإيغال	232
الإرداف والتتبيع	207		

يبدو من خلال هذا الجدول أن "قدامة بن جعفر" قد اخترع مصطلحات اختزل بها مفاهيمه الجديدة التي ضاقت مصطلحات "ابن المعتز عن استيعابها، وكان منطلقه في ذلك أنه لا منازعة ولا مشاحة في الاصطلاح، وبذلك فقد أضاف ثلاثة عشر مصطلحا إلى الرصيد السابق الذي جاء به "ابن المعتز"، فبلغت الأنواع عندهما واحدا وثلاثين نوعا.

ومما يمكن ملاحظته كذلك أن معظم هذه المصطلحات معنونة بـ "الائتلاف"، فـ"قدامة بن جعفر" أقام دراسته للشعر على أربع قضايا(اللفظ، والمعنى، والوزن، والقافية) وألّف منها أربعة مصطلحات، وذكر الأنواع التي تندرج تحت كل واحدة منها، وهذه المصطلحات هي:

1_"ائتلاف اللفظ مع المعنى" فرّع منه أربعة مصطلحات، هي: المساواة، والإشارة، والإرداف والتتبيع، والتمثيل.

2_"ائتلاف اللفظ مع الوزن"، 3_"ائتلاف المعنى مع الوزن"، 4_ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، وقد فرّع من هذا الأخير مصطلحين اثنين، هما: التوشيح والإيغال.

ويتابع"ابن أبي الإصبع المصري" منهجه في تصنيف المادة العلمية وتبويبها، حيث أعاد ترتيب أبواب البديع التي أخذها من غيره، فلم يكن مجرد ناقل عن السابقين، بل نقد آراءهم و شواهدهم فحرّر ما يحتاج إلى تحرير وحبّر ما يحتاج إلى تحبير، وبذلك كان ناقدا أكثر منه ناقلا. يقول في هذا:« ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي، غير أني توخيت تحرير ما جمعته من هذه الكتب جهدي ودققت النظر حسب طاقتي، فتحرست من التوارد، وتجنبت التداخل، ونقحت ما يجب تنقيحه، وصححت ما قدرت على تصحيحه، ووضعت كل شاهد في موضعه، وربما أبقيت اسم الباب وغيرت مسماه إذا رأيت اسمه لا يدل على معناه، إلى أن جمعت جميع ما في هذه الكتب من الأبواب على ما قدمت من الشرائط فكان ما

جمعته من ذلك ستين بابا فروعا، بعد ما قدمته من الأصول وهي: الاحتراس، والمواربة، والترديد والتعطف، و التفويف، والتسهيم، والتورية، والتوشيع، والاستخدام، والتغاير، والطاعة و العصيان والتسميط، والمماثلة، و التجزئة، والتسجيع، والترصيع، والتصريع، والتشطير، والتعليل، والتطريز والتوشيح، والاشتراك، والتلفيف، والعكس، والإغراق، والغلو، والقسم، والاستثناء، والاستدراك، وجمع المختلفة والمؤتلفة، والتوهيم، و الاستطراد، والتكميل، والمناسبة، والتفريع، والتكرار، ونفي الشيء بإيجابه والإيداع، والاستعانة، والموازنة، والتذييل، والمشاكلة، والمواردة، والتهذيب، وحسن النسق، وبراعة التخلص والانسجام، والحل، والعقد، والتعليق، والإدماج، والازدواج، والاتساع، والمجاز، والإيجاز، وسلامة الاختراع من الاتباع، وحسن الاتباع، وحسن البيان، والتوليد، والتنكيت، والاتفاق، والإغراق، والطرفة» [20] .

ثم أضاف هذه الأبواب الفروع إلى تلك الثلاثين الأصول فصارت تسعين بابا.

يضيف "ابن أبي الإصبع المصري" أن "الأجدابي" قد ذكر من محاسن القافية أربعة أبواب، منها بابان هما باب واحد، سماهما "الأجدابي" تسميتين غير مطابقتين لمعناهما، فجعلهما "ابن أبي الإصبع المصري" بابا واحدا وسماه "الالتزام"، و بابان آخران معناهما حسن سمى أحدهما تسمية غير لائقة، فسماه هو:" تشابه الأطراف". وباب آخر سماه "الأجدابي" بما لايوافق فسماه هو "التوأم"، وهذا ما أخذه على نفسه من تجنب التداخل، وتنقيح ما يجب تنقيحه وتصحيح ما قدر على تصحيحه. وبذلك سلمت "للأجدابي" ثلاثة أبواب عوض بها "ابن أبي الإصبع المصري" ما تداخل في باب" التهذيب" من «ائتلاف اللفظ مع الوزن، والمعنى مع الوزن»، وما تداخل في باب "التمكين" من «ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت»، لتصح القدرة على شرط السلامة تسعين بابا كلها من المحاسن، وهي عند من لا يجعل التهذيب بابا واحدا، ثلاثة وتسعون بابا [21] .

وفي سياق جمعه لهذه الأنواع عنّ له استنباط أنواع جديدة_ كما فعل السابقون_ و أخذا بمقولة«لا مشاحة في الاصطلاح»، يقول:« و لما أخذت في ذلك عنّ لي أبواب تزيد بها الفوائد، ويكثر بها الإمتاع نسجا على منوال من تقدمني، و اتباعا لسنّة من سبقني، ففتح عليّ من ذلك بثلاثين بابا، سليمة من التداخل و التوارد، لم أُسبق في غلبة ظني إلى شيء منها، اللهم إلا أن يوجد في زوايا الكتب التي لم أقف على شيء مما اخترعته، فأكون أنا ومن سبقني إليه متواردين عليه، وما أظن ذلك، والله أعلم» [22] .

وقد أفرد لهذه الأنواع الجزء الرابع من كتاب"تحرير التحبير"، وهي:

المصطلح	الصفحة	المصطلح	الصفحة	المصطلح	الصفحة
التخيير	527	التندير	571	المقارنة	603
التدبيج	532	الإسجال بعد المغالطة	574	المناقضة	607
الاستقصاء		الإلغاز والتعمية	579	الانفصال	609

	540				
البسط	544	التصرف	582	الإبداع	611
الهجاء في معرض المدح	550	النزاهة	584	حصر الجزئي وإلحاقه بالكلي	600
العنوان	553	التسليم	587	التهكم	568
الإيضاح	559	الافتنان	588	القول بالموجب	599
الفرائد	576	المراجعة	590	التشكيك	563
الحيدة والانتقال	566	السلب والإيجاب	593	التمزيج	536
الشماتة	567	الإبهام	596	حسن الخاتمة	616

نستنتج من هذا الجدول أن "ابن أبي الإصبع المصري" قد أسهم في الإتيان بمصطلحات معتبرة حيث بلغ عددها ثلاثين مصطلحا.

وحسب محقق كتابيه: "حفني محمد شرف"، فإن عدد الأنواع التي اخترعها أو ابتدعها "ابن أبي الإصبع المصري" خمسة وعشرون مصطلحا نقديا وبلاغيا؛ أربعة وعشرون مصطلحا مما سلم له في الجزء الرابع من كتاب "تحرير التحبير" من ضمن ثلاثين مصطلحا زعم أنها من إبداعه أو اختراعه، ومن بين هذه المصطلحات مصطلح "التصرف" الذي وُسم في كتاب "بديع القرآن" "الاقتدار"، معللا ذلك بأن "الاقتدار" أنسب وأليق بالقرآن الكريم؛ حيث أخرج المحقق الأنواع المسبوق إليها، وهي: التخيير، والبسط والتهكم، والإبهام وحسن الخاتمة، والبقية من اختراعه أو إبداعه.

والملاحظ على هذه المصطلحات إن معظمها من ذوات الكلمة والكلمتين عدا اثنين منها اشتملت على أربع كلمات، مما يدل على أن ما جاء به ابن أبي الإصبع المصري مؤسّس اصطلاحيا؛ بمعنى أن تلك المصطلحات خاضعة لشروط وضع المصطلح، ويفيد هذا في سيرورته؛ فكلما كان عدد الكلمات المكونة للمصطلح أقل كان المصطلح أجود وأقرب للانتشار.

ثم أضاف"ابن أبي الإصبع المصري" الأبواب البديعية إلى بعضها(الأصول منها والفروع وما اخترعه هو) فصارت ثلاثة وعشرين ومائة(123) بابا. عدا ما انشعب عن بعض الأبواب، مثل: أبواب الائتلاف من الجناس، والطباق، والتصدير.

3 _ كتاب بديع القرآن:

يُعد كتاب"بديع القرآن" اختصارا نافعا لكتاب "تحرير التحبير"، تناول فيه "ابن أبي الإصبع المصري" الألوان البديعية التي عُرفت إلى عصره، والمختصة بالقرآن الكريم، وإن كانت أكثر الشواهد القرآنية التي

وظفها في "بديع القرآن" وردت في" تحرير التحبير". يقول "ابن أبي الإصبع المصري" في مقدمة " بديع القرآن"، بعد أن تحدث عن "تحرير التحبير":« وسُئلت اختصاره فلم أجد إلى ذلك من سبيل، لارتباط بعضه ببعض، ودعاء الحاجة إلى كل ما فيه، وتعلق معانيه بمعانيه، ورأيت أني إذا أفردت منه الأبواب المختصة بالقرآن الكريم كان ذلك اختصارا نافعا، تتميز فيه بلاغات القرآن وبديعه، ويسهل إخراج إعجازه، وطرق إطنابه و إيجازه، وأكون قد أتيت من ذلك بما لم أُسبق إليه، فأفردت الأبواب المختصة بالكتاب العزيز»[23].

تكلم فيه المؤلف عن تسع ومائة نوع ، تاركا من أنواع "تحرير التحبير" اثنين وعشرين لم يذكرها. وقد علل عدم ذكر تلك الأنواع، أنها لا تتفق وموضوع "بديع القرآن"« إذ الهزل الذي يراد به الجد والإغراق والغلو والهجاء في معرض المدح والإلغاز والتعمية كل هذه الأنواع لا تليق بالقرآن الذي جاء منزها عن الفحش، ودستورا للأخلاق، وناشرا للفضيلة، وموضحا، ومبينا لا مغلقا، فتعالى الله وكلامه عن هذه الأنواع علوا كبيرا. وإنما توجد هذه الأنواع في كلام البشر لا في كلام خالقهم»[24] .

وقد أوضح المؤلف في كتابه "تحرير التحبير" أن هذه الأنواع لا توجد في كلام البشر إلا مقرونة بما يخرجها من باب الاستحالة ويدخلها في باب الإمكان [25] .

ومن الأنواع التي تكلّم عنها المؤلف في بديع القرآن، ولم يشر إليها في كتاب "تحرير التحبير" ما هو من الفروع، ومنها ما هو من الجديد، كما هي موضحة في الجدول التالي: [26]

المصطلحات الفروع	الصفحة	المصطلحات الجديدة	الصفحة
التلفيف	123	التفريق والجمع	313
التفصيل	154	الرمز والإيماء	321
الإلجاء	226	التنظير	238
		الزيادة التي تفيد اللفظ فصاحة وحسنا والمعنى توكيدا أو تمييزا لمدلوله عن غيره	305

و الملاحظ على هذه الأنواع التي ذكرها في "بديع القرآن" ولم يذكرها في "تحرير التحبير" أنها ليست مستحيلة الوقوع في كلام البشر، ولكنها وجدت في كلامهم.

4 _ أوجه التشابه وأوجه الاختلاف في الكتابين:

4-1 - أوجه التشابه:

ذكرنا أن كتاب "بديع القرآن" مستخلص من كتاب "تحرير التحبير" أفرده "ابن أبي الإصبع المصري" لما يختص بالقرآن الكريم من الأنواع البديعية ، فكان اختصارا نافعا تميزت فيه بلاغة القرآن الكريم و

بديعه ليسهل من وراء ذلك إخراج إعجازه، فكان بذلك عملا متميزا لم يُسبق إليه. وعليه فإن الكتابين يتشابهان في المنهج والصورة العامة.

4-2- أوجه الاختلاف:

يختلف الكتابان _ إلى حد قليل _ في الموضوع، "فبديع القرآن" يختص بالأنواع البديعية التي وجدت إلى عصر المؤلف والخاصة بالقرآن الكريم وفقط، أمّا "تحرير التحبير" فكان جامعا لما في النثر والشعر من الأنواع البديعية.

تكلم المؤلِّف في "تحرير التحبير" عن خمسة وعشرين ومائة نوع ، وفي "بديع القرآن" عن تسعة ومائة نوع. تاركا من أنواع "تحرير التحبير" اثنين وعشرين نوعا لم يتكلم عنها، وهي:«(1) الهزل الذي يراد به الجد (2)ائتلاف اللفظ مع الوزن (3)ائتلاف المعنى مع الوزن (4)التجزئة (5) التشطير(6) الترصيع (7) التصريع (8) التطريز (9) التوشيع (10) الإغراق (11) الغلو (12) الاشتراك (13) التفريع (14) الإيداع (15) الاستعانة (16) المشاكلة (17) الموارد (18)الحل (19) العقد (20) الاتفاق (21) الهجاء في معرض المدح (22)الإلغاز والتعمية» [27] .

وقد علّل عدم ذكر هذه الأنواع في" بديع القرآن" أن منها ما لا يليق بالقرآن الكريم _ كما أسلفنا الذكر _ ، ومنها ما يخص المنظوم دون المنثور، من مثل: ائتلاف اللفظ مع الوزن، الترصيع، التصريع التشطير، الحل...وغيرها، ومنها ما لم يجد له أمثلة في القرآن العزيز، كما ذكر أنواعا في " بديع القرآن " لم يذكرها في " تحرير التحبير" _ تَمَّ ذكرها في الصفحة السابقة _ تكشفت له وهو يدرس القرآن الكريم.

والأكثر من هذا كله كان "ابن أبي الإصبع المصري"«يذكر نوعا في تحرير التحبير باسم، ثم يذكره في البديع باسم آخر، فذكر في كتاب تحرير التحبير نوع "ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت"، وسمّاه في بديع القرآن "ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام"، وعذره في ذلك أن القرآن ليس شعرا حتى تتفق قوافيه مع أبياته، وكذلك ذكر في تحرير التحبير نوع "التصرف"، وسماه في بديع القرآن "الاقتدار"، ومسمى الاسمين واحد، ولعله فعل ذلك لأن الاقتدار أليق بالقرآن» [28] .

بمعنى كان قد ذكر نوعين في كتاب "تحرير التحبير" باسمين ثم غيّرهما في كتاب"بديع القرآن"، وهما: "ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت" و"التصرف" وسماهما :"ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام"، و"الاقتدار"، وهذا في رأيه أليق بالقرآن الكريم.

5_ جهود أخرى في المصطلح في الكتابين:

إلى جانب ما تقدم، فقد طوَّر "ابن أبي الإصبع المصري" في مفاهيم كثير من المصطلحات، من ذلك مصطلح: "الإبداع" الذي عرّفه "ابن رشيق القيرواني"(ت456هـ) بقوله:«هو إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف الذي لم تجر العادة بمثله، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع» [29] .

في حين عرّفه "ابن أبي الإصبع المصري" بقوله:«هو أن تكون مفردات كلمات البيت من الشعر، أو الفصل من النثر أو الجملة المفيدة، متضمنة بديعا بحيث يأتي في البيت الواحد والقرينة الواحدة عدة ضروب من البديع بحسب عدد كلماته أو جملته، وربما كان في الكلمة الواحدة المفردة ضربان فصاعدا من البديع، ومتى لم تكن كل كلمة بهذه المثابة فليس بإبداع» [30] .

فالإبداع عند "ابن رشيق القيرواني" هو الإتيان بالمعنى الجديد، أمّا عند "ابن أبي الإصبع المصري" فقد أخذ مفهوما جديدا خاصا ، يتعلّق بمهارة الشاعر أو الكاتب في توظيف ما يعرف بالمحسنات البديعية، مخضعا ذلك للكم في الاستعمال ، حيث يشترط توفّر الكلمة أو الجملة على نوعين من البديع فصاعدا ، وإلا خرج ذلك عن معنى الإبداع.

لقد كان منهج "ابن أبي الإصبع المصري" عند ذكر أي مصطلح أن يعرفّه تعريفا اصطلاحيا متفقا مع مسماه، وقليلا ما يتعرض للمعنى اللغوي إذا كان في التسمية غرابة. نذكر هنا _ على سبيل المثال _ ما جاء في باب الطباق، يقول "ابن أبي الإصبع المصري" :« الطباق اللغوي الذي أخذ منه الصناعي هو قول العرب: طابق البعير في مشيه إذا وضع خفّ رجله موضع يده، وقد رد ابن الأثير على كل من ألّف في الصناعة هذا الباب، وقال: إن الجمع من تسميتهم الضدين في هذا الباب خطأ محض، لأن أصل الاشتقاق يقتضي الموافقة لا المضادة و هو أولى بالخطأ منهم، لأن القوم رأوا أن البعير قد جمع بين الرِّجْل واليد في موطئ واحد، والرِّجْل واليد ضدان، أو في معنى الضدين، فرأوا أن الكلام الذي قد جمع فيه بين الضدين يحسن أن يسمى مطابقا لأن المتكلم به قد طابق فيه بين الضدين» [31] .

كما اهتم المؤلف اهتماما كبيرا بالمصطلح النقدي والبلاغي، فدرسه بأسلوب علمي يعتمد على أداء الحقائق والدقة في البحث والاستقصاء، والأسلوب الأدبي الذي يعتمد على الذائقة الفنية، فقد قام باستقصاء القواعد البلاغية التي جاء بها السابقون، ونظمها في كتابيه المذكورين، وفرّق بين باب وآخر يقترب منه أو يلتبس به، ومن تلك الأبواب: التضمين، والإيداع، والاستعانة، والعنوان، يقول:« والفرق بين التضمين والإيداع والاستعانة والعنوان أن التضمين يقع في النظم والنثر ولا يكون إلا بالنثر و يكون من المحاسن ومن العيوب، ولكنه لا يكون من العيوب إلا إذا وقع في النظم بالنظم، والإيداع والاستعانة و إن وقعا معا في النظم والنثر فلا يكونان إلا بالنظم دون النثر، وأما العنوان فإنه يقع في النظم والنثر ولا يقع بالنثر، وهو بخلاف التضمين لا يكون إلا من المحاسن دون العيوب والتضمين منهما معا» [32] .

و قد كان يناقش العلماء السابقين في تعريفاتهم ويذيل تلك المناقشة برأيه الخاص، ويوافق بين تلك الآراء إن أمكن ذلك، وهذا كثير في كتابيه، فمثلا: في باب الاستعارة من كتاب "تحرير التحبير" يقول:
« حد الرماني الاستعارة بأن قال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على سبيل النقل.

و قال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها(وقال ابن الخطيب في إعجازه: الاستعارة ذكر الشيء باسم غيره و إثبات ما لغيره له للمبالغة في التشبيه. وقال أيضا: الاستعارة جعل الشيء للشيء، أو جعل الشيء للشيء لأجل المبالغة في التشبيه).

و قلت: هي تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي للمبالغة في التشبيه، كقول الله تعالى(وإنه في أم الكتاب) وكقوله سبحانه:(واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) وكقوله عز وجل:(واشتعل الرأس شيبا)»[33] .

كما أنه كان يفرع نوعا من نوع، ويضع لذلك الفرع اسما يحدده، مثلما فعل في "باب رد الأعجاز على الصدور"، حيث يقول:

« وهو الذي سماه المتأخرون التصدير، وكان ابن المعتز قد قسمه إلى ثلاثة أقسام؛ الأول: ما وافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في صدره (أو كانت مجانسة لها). كقول الشاعر(الكامل):

يُلفىَ إذا مَا كَان يَوْمُ عرمرم فِي جَيْشِ رأْى لاَ يُفَلُّ عَرَمْرَمِ

و الثاني: ما وافق آخر كلمة من البيت أول كلمة منه كقول المغيرة (الطويل):

سَريع إلى ابن العَم يَشْتُم عِرضَه وَلَيْسَ إلى دَاعِي النَدَى بِسَريع

والثالث: ما وافق آخر كلمة من البيت بعض كلماته في أي موضع كان كقول جرير(الطويل):

سَقى الرملَ جَوْنٌ مُسْتَهلٌ غَمَامُهُ ومَا ذَاكَ إلا حُبُّ مَنْ حلَّ بالرملِ

هكذا عرَّف ابن المعتز القسم الثالث من التصدير، و هو عندي مدخول التعريف من أجل قوله: ما وافق آخر كلمة من البيت بعض كلماته في أي موضع كانت. فإنها لو كانت في العجز لم يُسمّ تصديرا لأن اشتقاق التصدير من صدر البيت، فلا بد من زيادة قيد في التعريف يسلم به من الدخل بحيث يقول: بعض كلمات البيت في أي موضع كانت من حشو صدره . وأظن ابن المعتز اتكل في ذلك على البيت الذي جاء به مثالا(ولا ألوم ابن المعتز. وهذا ابن الخطيب على تأخر زمانه واطلاعه لأجل التأخر على أكثر ما قيل. وتقدمه في الفضائل قد جاء على بعض أقسام التصدير يقول الشاعر(الطويل):

(وإنْ لَمْ يَكُنْ إلا مُعَرس سَاعة قلِيلا فإني نَافِع لِي قِليلُهَا)

ولم يضع ابن المعتز لهذه الأقسام اسما يعرّف بعضها من بعض، و الذي يحسن أن نسمي به القسم الأول تصدير التقفية، والثاني تصدير الطرفين، والثالث تصدير الحشو» [34].

ثم أخذ يستشهد لهذا اللون البديعي بشواهد من القرآن الكريم، و السّنة النبوية الشريفة، و الشّعر. وقد يأتي بالشاهد من شعره هو، فقد أورد حوالي خمسة وعشرين شاهدا من شعره في أبواب متعددة من كتاب تحرير التحبير، نذكر _ على سبيل المثال لا الحصر _ قوله في باب "رد الأعجاز على الصدور" (البسيط):[35]

اصْبِرْ علَى خُلْقِ مَنْ تُعاشِرُهُ واصْحَبْ صَبُورا على أذَى خُلُقِكَ

كما قال في باب "صحة التفسير والتبيين"(الطويل) : [36]

لآبائكَ الماضينَ يا حَسَنَ الندى صِفاتُ بهَا لا غَيْرُ تَعلُو المَراتِب
وجُوه وآراء وشُهْبُ عزائم وأيد بدَيْجور الخطوب كوَاكِب
يُماط الدجَى منها ويُهْدى بها الوَرَى ويُرْحم من يجْنى و تُسْقى السحَائِب

و قوله في باب "التسميط" (البسيط): [37]

و أَسْمَر مُثْمِر بِمُزهِر نَضِر من مُقْمر مُسْفر عن مَنْظَر حسَن

والجدير بالذكر، أن "ابن أبي الإصبع المصري" لا يورد شاهدا شعريا إلّا وينبّه على أنّه من شعره .

وما يلاحظ في توظيفه الشواهد، هو اختلاف تعامله معها ، ففي بعض الحالات يقدّم القرآن والسنة النبوية الشريفة على الشعر ، وفي حالات أخرى لا يعتمد هذا الترتيب في توظيف الشاهد ، فقد يبدأ بالشعر ثم ينتقل إلى القرآن الكريم فالسنة النبوية الشريفة.

ولم يكتف بإيراد تلك الشواهد، بل قام بتحليلها ونقدها، معتمدا على الذوق في معرفة الجمال لتبيين بلاغتها وإدراك ما فيها من فوائد أسلوبية، وقيم معنوية، وهذا ليس بالجديد على من سبقه من العلماء، ولكن ما يميزه هو منهجه البارع في اختيار الشواهد وتحليلها ، وكذلك الجهد المبذول في الاستقصاء والتتبع، فقد قام بدراسة الأنواع البديعية الموجودة في القرآن الكريم دراسة وافية، حيث استقصى في القليل من الألفاظ القرآنية الكثير من الأنواع البديعية، مثلما جاء في باب "المناسبة" حين مثّل بقوله تعالى: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأبْصَارَ وهو اللَّطيفُ الخَبيرُ** ﴾ {سورة الأنعام، الآية 103 } ، يقول:«فإن معنى نفي إدراك الأبصار للشيء يناسب اللطف، وهذا الكلام خرج مخرج التمثيل، لأن المعهود عند المخاطب أن البصر لا يدرك الأجسام اللطيفة، كالهواء وسائر العناصر، ولا الجواهر المفردة، وإنما يدرك اللون من كل متلون، والكون من كل متكون، فجاء هذا التمثيل ليتخيله السامع فيقيس به الغائب على الشاهد؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿ وهو يدرك الأبصار﴾، فإن ذلك يناسبه وصف المدرك بالخبرة ؛ فإنه سبحانه لما أثبت له إدراك الأبصار: أي ألباب الأبصار التي نفى عنها إدراكه تكميلا للتمدح حسب ما اقتضته البلاغة من تصحيح معنى التمدح، واحتراسا ممن يظن أنه إذا لم يكن مدركا لم يكن موجودا، فوجب أن تقول: ﴿ وهو يدرك الأبصار﴾، لتثبت لذاته الوجود وزيادة، ثم عطف على الأول و الثاني ﴿ وهو اللطيف الخبير﴾ ليناسب معنى آخر الكلام أوله، وعجزه صدره ورجّح لفظة الخبير على لفظة

البصير لما فيها من الزيادة على الإبصار والإدراك، إذ ما كل من أبصر شيئا، أو أدركه كان خبيرا به، فتضمنت على ذلك الفاصلة معنى زائدا على معنى الكلام وُصفتْ لأجله بالإيغال» [38].

يتابع "ابن أبي الإصبع المصري" بعد هذا التحليل البارع استخراج الأنواع البديعية الموجودة في الآية الكريمة والتي فاقت عدد كلماتها، قائلا:« فحصل في هذه الآية على ذلك اثنا عشر ضربا من البديع و هي: التعطف الذي هو قوله: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾ لمجيء لفظة« الأبصار» في أول الكلام وآخره؛ والمقارنة، لاقترانه بالمطابقة في قوله: ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾؛ و الإدماج لما أدمج في التعطف من الاحتراس... و المناسبة التي هي أم الباب؛ والترشيح بالمناسبة إلى الإيغال الذي بيناه؛ والإشارة لدلالة اللفظ القليل على المعاني الكثيرة؛ والمجاز لحذف المضاف من قوله: وهو يدرك الأبصار، أي ذوي الأبصار لتقرب ألفاظ التعطف بعضها من بعض، فيكون ذلك أحسن وأبين؛ و التخيير للعدول في الفاصلة عن البصير، والمدرك إلى الخبير؛ و الإيجاز فإن هذه الآية تسع لفظات تضمنت اثني عشر ضربا من البلاغة» [39].

ويمكن التأكد من قدرته وبراعته واستقصائه في تحليل قوله تعالى: ﴿ **وقيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ويَا سَمَاءُ أَقلِعِي وغيضَ الماءُ وقُضيَ الأَمرُ واستوتْ على الجُوديّ و قيلَ بُعدا للقَوْمِ الظَّالمين**﴾{ سورة هود، الآية 44}.

فقد استقصى هذه الآية جيّدا واستخرج منها ثمانية عشر ضربا من البلاغة عدا ما تكرر منها مثل الاستعارة فإنها تكررت في موضعين في كلمتي الابتلاع والإقلاع وهذه الضروب هي: المناسبة بين ابلعي وأقلعي، والمطابقة اللفظية بين السماء والأرض، والاستعارة في ابلعي وأقلعي، والمجاز في قوله« ويا سماء» إنّما أراد يا مطر السماء، والإشارة في قوله:« وغيض الماء»، لأن الماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء، والإرداف في قوله:« واستوت على الجودي» فإنه عبّر به عن استقرار السفينة في هذا المكان وجلوسها جلوسا متمكّنا لا زيغ فيه ولا ميل، و التمثيل في قوله:« وقُضي الأمر»، والتعليل لأن غيض الماء علّة الاستواء، وصحة التقسيم حين استوعب سبحانه وتعالى أحوال الماء حالة نقصه، والاحتراس من توهُّم من يتوهَّم أن الهلاك ربما عمَّ من لا يستحق الهلاك بالدعاء على الهالكين، والانفصال، فإن لقائل أن يقول: إن لفظة القوم يستغنى عنها؛ فإنه لو قيل:« وقيل بعدا للظالمين» لتم الكلام، والمساواة لأن لفظ الآية لا يزيد على معناه ولا ينقص عنه، وحسن النسق في

عطف القضايا بعضها على بعض حسبما وقعت، الأول فالأول، وائتلاف اللفظ مع المعنى لكون كل لفظة لا يصلح غيرُها مكانَها، والإيجاز، لأن الله عز وجل اقتص القصة بلفظها مستوعبة في أخصر عبارة بألفاظ غير مطوّلة، والتسهيم لأن مِن أوّل الآية إلى قوله تعالى:« أقلعي» يقتضي آخرها والتهذيب لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن كل لفظة سهلة مخارج الحروف، عليها رونق الفصاحة وحسن البيان حيث إنّ السامع لا يتوقف في فهم معنى الكلام، والتمكين، لأن الفاصلة مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، والانسجام، وهو تحدّر الكلام بسهولة وعذوبة سبك، والإبداع الذي هو في مجموع الآية الكريمة التي لا تتجاوز سبع عشرة لفظة تضمنت واحد وعشرين ضربا من البلاغة [40].

وفي باب "التوهيم "نجده يستشهد بقوله تعالى: ﴿ **وإِنْ يُقَاتِلوكُمْ يُوَلوكمُ الأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ** ﴾ {سورة آل عمران، الآية 111 } ، ثم يعلق على الآية الكريمة مستثمرا معرفته في علمي النحو والتفسير، إذ استطاع بفضلها أن يخرِّج الآية تخريجا يؤدي إلى المعنى المقصود، وينعى على النحويين تخريجهم عطف غير المجزوم على المجزوم ، يقول:«وهذه الآية خولف فيها طريق الإعراب في الظاهر، من جهة عطف ما ليس بمجزوم على مجزوم، ليعدل عن الظاهر إلى تأويل يصحح المعنى المراد، فإن المراد _ والله أعلم _ بشارة المسلمين بأن هذا العدوّ لا ينصر أبدا ما قاتل المسلمين، ليكتمل سرور المسلمين بخذلان عدوّهم في الحال و أبدا في الاستقبال، ولو عطف الفعل على ما تقدم على قاعدة العربية الظاهرة لما أفاد سوى الإخبار بأن العدو لا ينصر في الحال، وهو زمان المقاتلة، ووقت التولية، ولا يعطى ذلك خذلانهم على الدوام في كل حال، فقد قال النحاة: إن الوجه في هذا الموضع أن يقال: هو من عطف الجملة على الجملة، فإن التقدير: ثم هم لا ينصرون»[41]، ولكن هذا الكلام وذلك التخريج لم يعجبه، فعلَّق عليه بما يدل على فهمه للنحو والتفسير وحذقه بهما، ومعرفته التامة بأسباب النزول فيقول: وعلى هذا التخريج أي تخريج النحويين لا يزال الإشكال باقيا ومع ذلك فإنه يقال: لم عدل عن مجيء الكلام على قاعدة العربية المعروفة إلى ما يحتاج إلى التأويل؟ وهلا قيل: و إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا؟.. فيحتاج المجيب إلى أن يقول: لما كان مجيء الكلام على ما ذكرت غير محتاج إلى تأويل لا يوفي بالمعنى المراد، لأن المعنى المراد بشارة المسلمين أن عدوهم متى قاتلهم كان مخذولا. و مجيء الكلام على ما ذكر المعترض لا يوفي بذلك المعنى، فإنه لا يعطى إلا عدم النصر حالة المقاتلة وحسب، فعدل عن ذلك إلى ما جاء به التنزيل، ليكون مجيء الثاني غير مجزوم، وقد عطف على مجزوم منبها السامع إلى السبب الذي من أجله عدل عن قاعدة الإعراب، فيفطن إلى أن ذلك إشارة إلى خذلان العدو أبدا ما قاتل المسلمين لمجيء الفعل دالا على الحال والاستقبال. أما الحال فخذلان العدو حالة القتال،

وأما الاستقبال فالبشارة بأنه كذلك ما وقع منه القتال، ولذلك عطف بـ: «ثم» لدلالتها على التراخي والمهلة لأنها دون سائر حروف العطف ملائمة لما عطفه من الفعل الدال على الاستقبال[42].

لم تقف جهود "ابن أبي الإصبع المصري" عند التأليف في البديع واستخراجه من القرآن و الشّعر فحسب، بل كانت له جولات في النقد مع الشعراء السابقين يتبع شعره بشعرهم، ويحسن ذلك الإتباع.

فنجده في باب "حسن الاتباع" من كتابه "تحرير التحبير" يوازن بينه وبين "ابن الرومي"(ت 284هـ) في بيت تبعه فيه [43] .

بيت "ابن الرومي" (البسيط) :[44]

سدَّ السدَادُ فمِي عمَّا يُرِيبُكُم لَكِنْ فمُ الحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

و بيت "ابن أبي الإصبع المصري"(الكامل):[45]

هبْني سَكَتُّ أمَّا لِسَانُ ضَرُورَتِي أهْجَى لِكُلِّ مُقَصِّر عَنْ مَنْطِقِي

يبدأ "ابن أبي الإصبع المصري " كلامه بذكر ما وقع في بيت "ابن الرومي " من المحاسن، ثم يذكر ما وقع في بيته هو منها، قائلا:« فإن بيت ابن الرومي وقع فيه من المحاسن أربعة عشر ضربا، وهي التجنيس في قوله سدَّ السداد، والتفسير في قوله:« عما يريبكم»، و الاستدراك في قوله: « لكن» وما بعدها، والاستعارة في قوله:« فم الحال»، والتصدير فيما بين القافية و أول البيت، والتمثيل، فإن البيت خرج مخرج المثل، والمساواة، لأن لفظ البيت طبق معناه، والائتلاف، لأن كل لفظة من مفردات ألفاظه لا يصلح مكانها غيرها، والإرداف في قوله:« لكن فم الحال» العجز كله: فإنه أراد أن يقول: سوء حالي ينطق بذمكم، فعبَّر عن المعنى بلفظ هو ردفه حيث قال:«لكن فم الحال مني غير مسدود» فرارا من التصريح بالذم والافتتان لأنه أشار إلى فن الفخر بوصف نفسه بالسداد. والبيت من فن العتاب والتعليق لأن فن الفخر متعلق بفن العتاب، والإدماج لأن الإشارة فيه مندمجة في التفسير في قوله:« عما يريبكم» لأن كل ما يريب لو عدد بلفظه الموضوع له لاحتاج إلى ألفاظ كثيرة، والتعطف في ذكر الفم في صدر البيت مع ذكره في عجزه، و التهذيب لمجيء جملة صدره على ترتيب الوضع اللغوي البليغ، من تقديم الفعل على الفاعل، وتقديم الفاعل على المفعول، وتقديم المفعول الذي تعدى الفعل بنفسه إليه على الفعل الذي تعدى إليه بالحرف، وكذلك رتّب العجز من تقديم حرف الاستدراك على الجملة الابتدائية وتقديم المبتدإ على الخبر» [46] .

يواصل كلامه أو موازنته مشيرا إلى ما اشتمل عليه بيته من محاسن البديع، فيقول:« واتفق في بيتي سبعة عشر ضربا من البديع، وهي: المطابقة في السكوت والنطق، واستعارة اللسان للضرورة، و المبالغة في قولي: «أهجى» والتكميل في قولي:« لكل مقصر» والتفسير في قولي:« من منطقي»، و التمكين من أجل أن القافية مستقرة في مكانها، والمساواة في كون لفظ البيت طبق معناه، والائتلاف في أن كلَّ لفظة لا يقوم غيرها مقامها، والإيجاز في تفاصيل البيت وجملته بالنسبة إلى البيت الذي قبله، فإن قولي« هبني سكتّ» أوجز من قول ابن الرومي:« سد السداد فمي » لأن ملخص كلامي سكتّ، وملخص كلامه: سدّ فمي. وقولي: « لسان ضرورتي» أوجز من قوله« فم الحال مني» وقولي:« أهجى» أوجز من قوله«غير مسدود»، فهذا إيجاز تفاصيل البيت، وأما إيجاز جملته فلأن حروف بيتي اثنان وأربعون، وبيت ابن الرومي خمسة وأربعون حرفا، مع أنهما قد استويا في عدة المتحركات، إذ كل بيت منهما سبعة وعشرون متحركا و الانسجام بالنسبة، لأن بيتي جاء عريا عن الكلفة بخلاف بيته، والإيضاح لأن المعنى المراد في ألفاظ بيتي أشد وضوحا من معناه، فإن بيتي لا يفتقر في دلالته على معناه لشيء مقدَّر بخلاف بيته، ومفردات ألفاظي أشدّ وضوحا لمعانيها من مفردات بيته، لأن قولي:« أهجى» أدلّ على معنى الهجاء بظاهره من قوله:« عما يريبكم» وكلا البيتين المراد به التهديد بصريح الهجاء نطقا دون هيئة، وفي قولي:«هبني سكتّ» إشارة إلى أنِّي لا أسكت، ثم قلت على حكم التنزل الجدلي: و هبني سكتّ أيسكت لسان ضرورتي؟ و في قول ابن الرومي:

سَدَّ السدادُ فَمِي عَمّا يُرِيبُكُمْ

إسجال على نفسه بالسكوت عن هجوهم، وهذا غير مراده الذي أراده من التهديد، و إذا وضح معنى الكلام هذا الوضوح في لفظ قد انتخبت مفرداته وحسن تركيبه وسهل فهمه، كان موصوفا بحسن البيان دون غيره، ومنعوتا بالتهذيب دون سواه، وإذا استوى البيتان في المعنى وكان أحدهما أخصر وزنا و أبلغ معنى وكانت محاسنه أكثر، وعَرى مما وقع في أخيه من العيوب، كان قائله موصوفا بحسن الإتباع وبيتي كذلك، لا سيما وقد وقع فيه مع هذا الإبداع، وهو تضمن كل لفظة بديعا أو بديعين، مثل تضمن «هبني سكت» الترشيح للاستعارة التي في«لسان ضرورتي» وفيها بعدها الضرب الجدلي الذي سماه أهل الصناعة المذهب الكلامي، وفي الضرب تفسير وتمكين، وفي جملة البيت ما تقدم، فحصل في البيت سبعة عشر ضربا من البديع... ففضل بيتي بيت ابن الرومي بثلاثة أضرب من البديع، وخلوه من العيب الذي بسببه امتنع به أن يوصف بالانسجام» [47] .

لم يقف "ابن أبي الإصبع المصري" بنقده الشعراء وفقط، بل كان يوجهه كذلك إلى المفسرين يحاجُّهم وينازعهم الرأي، ويدحض الحجة بالحجة [48] ، فها هو ذا في باب" جمع المختلفة والمؤتلفة" يعرض رأي المفسرين لقوله تعالى: ﴿ **ومنْ يُطِعِ الله ورسولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهاَ** ﴾ { سورة النساء، الآية 13} ، وقوله تعالى: ﴿ **ومَنْ يَعْصِ الله ورسولَهُ و يتعدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارا خَالِدا فيها**﴾ { سورة النساء، الآية 14}، يقول "ابن أبي الإصبع المصري" :« ذهب بعض المفسرين إلى أن جمع ضمير الخالدين مشير إلى أن الوقوف مع حدود الله وطاعته أمر متّبع يجب الاقتداء به، كل من عمل به تناوله هذا الوعد، وتعدى حدود الله تعالى معصية« ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» فلا يجوز متابعة من يعمل به عليه فلذلك أتى بضمير الخالد في النار موحدا. وذهب غير هذا إلى أن ضمير الخالدين في الجنة إنما جمع لقصد الملاءمة في النظم، فإنه سبحانه لمَّا قال:« جنات» بلفظ الجمع جاورها بلفظ الجمع في«خالدين» ولما قال«نارا» بلفظ الإفراد، جاورها بلفظ الإفراد فقال:«خالدا فيها» ليوصف الكلام بالملاءمة، وحسن الجوار، فيكون داخلا في باب ائتلاف الألفاظ بمعانيها؛ وهذا أشبه من الأول»[49].

ثم يدلي برأيه هو في أن ضمير الخالدين في الجنة إنما جمع لأن كلّ من دخل الجنة خالدا فيها أبدا وإن تفاوتت درجات الخالدين، بدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُمْ مِنْهَا بمُخْرَجينَ﴾{ سورة الحجر، الآية48} مطلقا في حق كل من دخلها، و أهل النار فيهم الخالد من الكفار والمنافقين، وغير الخالدين من عصاة المؤمنين، فساغ الجمع هناك ولم يَسُغ هاهنا لأن الخالدين في النار فرقة واحدة، ولأن المنافقين كفار في الباطن، و الخالدين في الجنات طبقات وجماعات على مقادير درجاتهم بحسب ما اعتد لهم به من أعمالهم وإن عمّهم الخلود [50].

كما نفى الشعر عن القرآن الكريم في باب "الانسجام" من كتابه "بديع القرآن"، قائلا:« وأما القرآن العزيز فلم يقع فيه من ذلك إلا ما جاء على مثال البيت المفرد فقط، والبيت المفرد لا يسمونه شعرا قصد أو لم يقصد» [51]، ثم ذكر أن لديه أدلة لا يتسع المقام لذكرها هنا، فقد بسط الرد عليها في كتابيه "الشافية في علم القافية" و "الميزان في الترجيح بين كلام قدامة وبين كلام خصومه.

6 _ تقييم جهوده في المصطلح في الكتابين:

على الرغم من أن "ابن أبي الإصبع المصري" قد ظهر في عصر عرف بالتبعية والتكرار لنظريات السابقين، فإن حرصه على الاجتهاد والإبداع في مجال المصطلحات النقدية والبلاغية من أجل فهم القرآن الكريم وإدراك سرّ إعجازه، جعل ميزة خاصة لجهوده في التأسيس.

وقد تجلت تلك الجهود في عناصر عدة، تعلق بعضها بالمنهج، وبعضها بالموضوعات، وبعضها بالشواهد والنصوص، وبعضها الآخر بالمصطلحات، حيث توسع في هذه الأخيرة وأكثر منها حتى أوصلها إلى ما يربو عن مائة وثلاثين مصطلحا نقديا وبلاغيا.

لقد كان له منهجه في تصنيف المادة العلمية وتبويبها، حيث أعاد ترتيب أبواب البديع التي أخذها عن غيره، فلم يكن مجرّد ناقل عن السابقين، بل نقد آراءهم وشواهدهم فحرّر ما يحتاج إلى تحرير وحبّر ما يحتاج إلى تحبير، وبذلك كان ناقدا أكثر منه ناقلا.

درس المصطلح بأسلوب علمي يعتمد على أداء الحقائق والدقة في البحث والاستقصاء، والأسلوب الأدبي الذي يعتمد على الذائقة الفنية، فقد قام باستقصاء القواعد البلاغية التي جاء بها السابقون ونظمها في كتابيه المذكورين.

بدا واضحا اهتمامه الكبير بالشواهد، حيث اتسع ذلك ليشمل نماذج متنوعة منها والتي جاءت في سياق شرح المصطلحات ومناقشتها وتوضيحها، من قرآن كريم، وحديث نبوي شريف، وشعر عربي، وأقوال الصحابة وبعض العرب.

ولعل الإكثار من الشواهد وتناولها بالشرح والتحليل ينم عن ذوق "ابن أبي الإصبع المصري" في حسن الاختيار أولا، ثم براعته في الشرح والتحليل ثانيا.

ولكن جهوده هذه على ما فيها من أصالة وإبداع فهي مخالفة_ إلى حد ما_ للعرف الاصطلاحي وللشروط التي تحكمه، ولهذا فهي تحتاج منا اليوم إلى إعادة النظر فيها وفق المناهج العلمية المعاصرة في دراسة المصطلح.

خاتمة:

اتضح لنا من عرضنا السابق لجهود "ابن أبي الإصبع المصري"، أنّ الرّجل لم يكن يريد أن يؤلّف في مجال المصطلح النقدي والبلاغي لمجرد التأليف، وإنما كان يحاول أن يضيف الجديد الذي يسهِّل على الدارسين فهم القرآن الكريم، وإدراك سرّ إعجازه، حتى تكون لكتاباته إضافات أخرى لم ينتبه إليها البلاغيون ودارسو الإعجاز. فقد تأثر بسابقيه وأثَّر في لاحقيه، فجمع المصطلحات البلاغية والنقدية

وبحثها مبديا رأيه فيها بذكاء ودراية، حيث ناقش تعريفات السابقين لبعض المصطلحات وذيّل تلك المناقشة برأيه الخاص، ووافق بين تلك الآراء في حالات عدّة.

وقد أخذ البديع عنده مفهوما واسعا شمل فنون البلاغة المعروفة، وهذا يمثل رفضا واعتراضا على تقسيم البلاغة العربية علوما ثلاثة: المعاني والبيان والبديع.

كما كان منهجه قائما على التفريع في الفنون البديعية والإكثار منها والتسابق في زيادتها، لهذا نجده يفرق بين أنواع متقاربة جدا.

إضافة إلى ما سبق فقد غيَّر أسماء بعض منها، مما رأى عدم توافق معنى مسمياتها، مثلما فعل بأبواب الأجدابي .

وفرَّع بعض الأنواع ووضع لكل فرع اسما يحدده، وطوَّر في مفاهيم مصطلحات كثيرة، كما أضاف إلى حقل الدراسات الاصطلاحية خمسة وعشرين مصطلحا انفرد بها جعلته متميز المكانة عن غيره.

وإذا كانت الجهود السابقة في التجديد المصطلحي النقدي والبلاغي ، فقد كانت لابن أبي الإصبع جولات في النقد مع الشعراء السابقين، يتبع شعره بشعرهم ويحسن ذلك الإتباع. ونقده هذا لم يقف عند الشعراء، فقد كان يوجهه إلى المفسرين والنحويين ، مع المحاجة والمنازعة في الرأي ودحض الحجة بالحجة.

وعليه، فقد كان دائم الحرص على الاجتهاد والإبداع في مجال المصطلحات حيث أثرى الحقل المصطلحي بمفاهيم كثيرة ومصطلحات جديدة بغرض الحد من الخلافات القائمة بين الدارسين.

الإحالات:

(1)- ابن ثغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط1، 1992م، ج7، ص34.

(2) - المصدر نفسه: ص نفسها.

(3) – الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15 ، 2002م، ج4، ص30.

(4)- ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، تحقيق حفني محمد شرف، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر، (د ط) 1995م، ص4 من مقدمة المحقق.

(5)- ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة، ط2، (د ت)، ص67 من مقدمة المحقق.

(6) – ينظر: المصدر نفسه، ص نفسها.

(7) – المصدر نفسه، ص57 من مقدمة المحقق.

(8) - ينظر: ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، ص4،5 من مقدمة المحقق.

(9) – ينظر: المصدر نفسه، ص5 من مقدمة المحقق.

(10)– ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان،(د ط)،(د ت) ج7، ص 347، 348.

(11) – ينظر: ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، ص 69، 70 من مقدمة المحقق.

(12) - ينظر: أحمد مطلوب وكامل حسن البصير: البلاغة والتطبيق، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، العراق، ط2 1999م، ص33.

(13) – بهاء الدين السبكي: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط1، 2003م، ج1، ص20 من المقدمة.

(14) – الزركلي: الأعلام، ص30.

(15) – المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

(16) – إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي عند العرب(نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) ، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، (د ت)، ص599.

(17) – المرجع نفسه، ص نفسها.

(18) – ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، ص 88، 91 من مقدمة المؤلِّف .

(19) – المصدر نفسه: ص83 من مقدمة المؤلِّف .

(20) – المصدر نفسه، ص 91، 92 من مقدمة المؤلِّف.

(21) – ينظر المصدر نفسه، ص92، 93 من مقدمة المؤلِّف .

(22) – المصدر نفسه، ص 94 من مقدمة المؤلِّف.

(23) – ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، ص 91،92 من مقدمة المحقق.

(24) – ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير،ص 60 من مقدمة المحقق.

(25) – المصدر نفسه، ص 321، 323.

(26) – ينظر: المصدر نفسه، ص61 من مقدمة المحقق.

(27) – ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، ص 92،93 من مقدمة المحقق.

(28) – ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، ص 61،62 من مقدمة المحقق.

(29) – ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، حققه ، وفصله، وعلق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت، لبنان، ط5، 1981م، ج1، ص265.

(30) – ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، ص 611.

(31) – المصدر نفسه، ص 111.

(32) – المصدر نفسه، ص 142.

(33) – المصدر نفسه، ص 97،98.

(34) – المصدر نفسه، ص 116، 117.

(35) – المصدر نفسه، ص 117.

(36) – المصدر نفسه، ص 189.

(37) – المصدر نفسه، ص 296.

(38) – ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، ص 146.

(39) – المصدر نفسه، ص 147.

(40) - ينظر: المصدر نفسه، ص 340– 342.

(41) – المصدر نفسه، ص 132.

(42) – ينظر: المصدر نفسه، ص133.

(43) – ينظر: ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، ص 11 من مقدمة المحقق.

(44) – ابن الرومي: الديوان، شرح أحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2002م، ج1، ص 390.

(45) – ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير، ص 483.

(46) – المصدر نفسه، ص 483، 484.

(47) – المصدر نفسه، ص 485، 486.

(48) – ينظر: ابن أبي الإصبع المصري: بديع القرآن، ص75 من مقدمة المحقق.

(49) – المصدر نفسه، ص 130.

(50) – ينظر: المصدر نفسه، ص131.

(51) – المصدر نفسه، ص 166.